"الخروج إلى النور" .. حكايات نادرة من سيرة الفنان نبيل عناني

2019-12-03

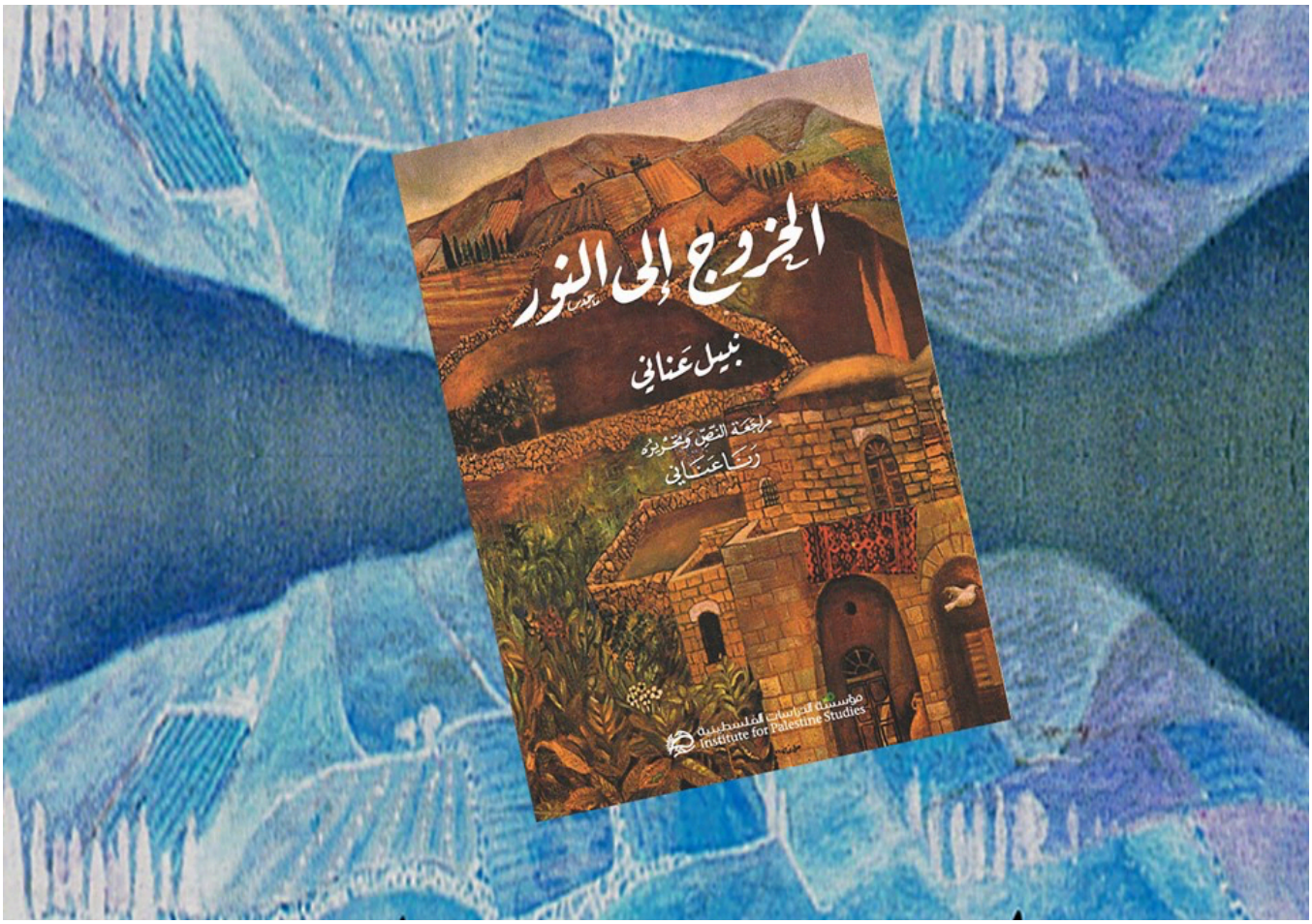

كتب يوسف الشايب:

"تقول أمي إنها ولدتني في بلدة عمواس، غرب القدس، في كانون الثاني 1943 . كانت ليلة شتاء باردة دوى الرعد فيها دويّاً مخيفاً ولمع البرق. كان والدي يعمل برتبة أمباشي في معسكر أقامته القوات البريطانية كمركز للشرطة غرب البلدة في منطقة تسمى اللطرون، وهناك سكن مع العائلة التي انتقلت للعيش معه. وعندما لاحت حرب 1948 في الأفق، نقل والدي الأسرة إلى حلحول، الأكثر أمناً والبعيدة عن مركز الاشتباك. وهناك سكنّا بيتنا الذي بناه قبل عدة أعوام على الشارع الرئيسي بين القدس والخليل" .. بهذه العبارات دوّن الفنان نبيل عناني افتتاحية سيرته الذاتية الشخصية والفنية، والموسومة بـ"الخروج إلى النور"، وصدرت حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

وفي الفصل الأول "طفولة" يواصل عناني السرد، ليقول: في سنة 1967 احتل الإسرائيليون عمواس وغيرها

من قرى القدس الغربية، ودمروها وشردوا أهلها. كانت زيارتي الأخيرة لها سنة 1985، وكانت تحولت إلى متنزّه أطلق عليه اسم "كندا بارك" وأنشئ بأموال كندية، وقد استخدمت حجارة البيوت الفلسطينية المهدمة لبناء جدرانه، بينما زرعت الأشجار الحرجية لتغطية بقايا القرية .. بعض حجارة بيوت القرية المدمرة ما زال ظاهراً للعيان، كأقواس الأبواب والشبابيك التي كتب عليها "الملك لله"، وتلك التي تتخللها زخارف شعبية كالنجوم والأهلّة، وبعض القبور وشواهدها والآبار وأشجار اللوز والكمّثرى، وكلها تشهد على المأساة التي حلت بالبلدة. تحاذي عمواس منطقة اللطرون الشهيرة بديرها القديم القائم حتى الآن، وهو ذو طابع معماري أوروبي معروف بصناعة النبيذ في دوره الأرضي، وتحيط به أراضٍ واسعة وكروم العنب.

وكشف عناني "المبنى الذي عمل فيه والدي لا يزال موجوداً يستخدمه الجيش الإسرائيلي كنقطة عسكرية، وعلى مقربة من مدخله بنيت منصة أسمنتية مرتفعة، وُضعت عليها دبابة كنصب تذكاري، ويقال إنها أول دبابة إسرائيلية دخلت الضفة الغربية في حرب 1967.

صور الطفولة والذاكرة

وعندما حث عناني ذاكرته، استرجع مشهد بيت العائلة في حلحول المكوّن من طابقين، ومن مخزن كانت تستعمله أمه مطبخاً، وغرفة علوية للنوم نصل إليها بدرج خارجي .. "أتذكر جلياً كيف كانت أمي تُلبسني أجمل الثياب لاستقبال والدي عند قدومه إلى حلحول من عمله في الخالصة. كنت أنتظر بفارغ الصبر بالقرب من الشارع، تتملكني رغبة عميقة في رؤيته، رابطاً قدومه بهدير محرك سيارة أجرة سوداء تصل من الشمال".

ويتذكر أيضاً "في ذهني، كطفل، ارتبطت صور الدبّابات البريطانية وحاملات الجند، ذات الصوت والصرير المزعج، بالخوف والعداء والقتل. لم يكن ذلك إحساسي وحدي، بل كان أيضاً إحساس والدتي وأختيَّ الأكبر مني سناً، عبلة وعدلة. وفي أحد الأيام شاهدت، بأسىً، إحدى الدبابات تجز شجرة حور طويلة، قطعت من منطقة الذروة شمال حلول لاستعمالها على الأغلب للتدفئة، أو في صناعة أعمدة الهاتف".

ومن اللافت في ذكريات عناني الطفولية ذلك المشهد الذي يصوره بالكلمات هو الذي اعتاد التصوير بالألوان، قائلاً "أذكر أنه عندما جلت القوات البريطانية عن فلسطين سنة 1948، عبرت أعداد كبيرة من المركبات والدبابات المحملة بالجنود الشارع الرئيسي أمام بيتنا متجهةً إلى القدس، ووقفنا كأطفال نحييهم، وأخذوا يلقون باتجاهنا علب البسكويت، التي تسابقنا إلى التقاطها. كان مشهداً مثيراً، وقليلاً كنا نعرف ما كان ينتظرنا بعد ذلك كفلسطينيين".

في المدرسة .. ومعلّم الدين

ويكشف عناني في كتابه "الخروج إلى النور" أن "معلم الدين، الذي علّم مساق الفن أيضاً، كان له الفضل في دعم موهبتي بعد حادثة وقعت وأنا في الصف الخامس الابتدائي. كان يعلّم التربية الدينية حينها، ويعمل كشيخ وإمام لمسجد النبي يونس في الوقت ذاته، وسكن في المسجد. وفي أحد الأيام، وبعد حصة شرح فيها الصلاة نظرياً، طلب منا أن نتبعه إلى المسجد لتطبيقها عملياً، فتبعناه ووصلنا إلى رواق المسجد الذي يبعد خمس دقائق سيراً

على الأقدام، ووقفنا في صفوف متوازية خلف المعلم الإمام، وبالصدفة وقفت خلفه تماماً. وعندما بدأت الصلاة، وفي أول ركوع وسجود انتابتني موجة من الضحك حاولتُ إخفاءها لكني لم أستطع، وازداد الضحك فصار صوت المعلم يعلو (الله أكبر ... الله أكبر) كطريقة للتحذير. وشيئاً فشيئاً انتقلت عدوى الضحك إلى الطلاب الآخرين حولي، وارتفع صوت المعلم أكثر فأكثر، لكن الضحك استمر وازداد".

وتابع سرد الحكاية "انتهت الصلاة، وسلّم الجميع، وأدار المعلم وجهه إلى المجموعة الواقفة خلفه مباشرة، وقال: عودوا إلى الصف وانتظروني هناك.. وصل المعلم إلى الصف غاضباً يحمل معه عصا طويلة، وبدأ التحقيق قائلاً: من ضحك فليخرج ويقف أمام اللوح.. لكنّ أحداً لم يخرج، وقال بعض الطلاب: هم الذين أضحكونا! .. فسأل المعلم: من الذي ضحك أولاً منتهكاً حرمة المسجد؟، قالوا: نبيل!، فأخرجني من مقعدي، وطلب مني أن أقف أمام الطلاب، وضربني أربع مرّات بالعصا على يدي، ثم أمرنا جميعاً بالخروج. غضبتُ وأخذتُ أبكي من شدّة الألم، ومن تصرّف المعلم، ومن موقف الطلاب المتخاذل. عدتُ إلى البيت ولم أخبر والدي. وفي نهاية الفصل جاءت شهادتي المدرسية، وقد كتب عليها من معلم الدين الذي هو مربّي الصف: قليل الدين متوسط السلوك! .. بعد ذهاب أبي إلى المدرسة للمراجعة، لاحظتُ أن تصرفات المعلم تغيّرت معي، فصار يشجعني على ممارسة الفن، وكثيراً ما يأخذ دفتر الرسم ليريه للأساتذة والمدير، كما جعلني ساعده الأيمن في العمل في المشاريع الفنية، وخصوصاً في مجال صنع الخرائط المجسّمة ووسائل الإيضاح لإرضاء المسؤولين والمفتشين، وتنظيم المعارض المدرسية".

حكايات الأب

وفي فصل "عن العائلة" يقصّ علينا عناني شيئاً مما قصّه عليه والده، من "حكايات مثيرة عن مغامراته كشاب، وعن فترة عمله في الشرطة مع الإنكليز، ومن ثم مع الأردنيين"، ومن هذه القصص تفصيلات عن تهريب ملابس للثوار، ومساعدتهم بمعلومات بشأن خطط الجنود الإنكليز وتحركاتهم التي لها علاقة بالاعتقالات والبحث عن السلاح، "وحدثنا عن أول سيارة تدخل إلى حلحول، وكيف تجمع الأهالي ينظرون تحتها للتأكد من عدم وجود حصان يجرها، في محاولة لاستيعاب التكنولوجيا الجديدة. وقد سجن والدي مدة أسبوع في إثر حادث سير صدم فيه رجلاً وأصابه بجراح طفيفة، لكن الضابط المسؤول عنه أخرجه من السجن".

ويذكر عناني كيف كان والده يستخدم الأمثال والتعبيرات المميزة، كما يصفها، فعندما "يكون الطقس بارداً جداً يقول "الدنيا مسهرجة" أو "البرد يقص المسمار"، وعندما تقترب الغيوم من سطح الأرض وتنعدم الرؤية يقول "الطقس مدلهم" أو "الدنيا مغطغطة"، وعندما تحتاج الأرض للحراثة بعد فصل الشتاء كان يقول "الأرض موفرة"، وإذا نزل المطر وشبعت الأرض يقول "ارتوت". وعن شهر آذار يقول "مرة شميسة ومرة مطار ومرة مقاقات الشنار"، وكان يصف الحر الشديد بالـ"سموم" أو يقول "في الشجر ولا في الحجر" و"في الظهر الحمرة".

وتحدث عناني عن الدجاجات العشر في مخزن الدور الأرضي، وعن أول فيلم شاهده في بيت لحم، وعن اتكاء والدته على الأمثال الشعبية كنوع من التوجيه والتربية، وعن بيت العائلة المكتظ، وعن جده الشيخ علي داود أبو يوسف شيخ العائلة، وجده الشيخ عبد الرزاق عناني.

مع إسماعيل شموط

ومما أورده عناني في كتابه السيريّ كيف اصطحبه عمّه المسؤول للدائرة العسكرية لمنظمة التحرير في مكتب شعفاط، العام 1965، ليلتقي الفنان إسماعيل شمّوط رئيس الدائرة الإعلامية الذي ذاع صيته في ذلك الوقت لإقامته العديد من المعارض المهمة في القاهرة ودمشق وبيروت والقدس .. "وضعني ذلك اللقاء في أول الطريق في مسيرتي الفنية، ولا سيما بعد النقاش الذي دار بيني وبين إسماعيل شموط حول كيفية تحضير سطح اللوحة وأماكن شراء الألوان والمواد والأدوات. فسألته حينها عن آلية تحضير السطح للرسم، وكنتُ أرسم مباشرة على القماش فيحدث نوع من التفاعل بين القماش وألوان الزيت، ويصبح السطح خشناً دون لمعة، فأخبرني أن عليّ طلاء السطح بالغراء مباشرة قبل الرسم، ونصحني بالاطلاع على أعمال فنانين عرب وأجانب، والاستفادة منهم ما أمكن. دهشتُ عندما شاهدت بعض لوحاته معلقة على جدران المكاتب، وأذكر منها لوحة لرجل وامرأة بثوب مطرز يحملان العلم الفلسطيني، ولوحة أخرى لرجل يتدفأ على الحطب، وغيرها .. عدتُ إلى البيت أفكر في اللقاء، وأشعر بانفعال شديد، وحماسة للدخول في تجربة جديدة وجديّة في الرسم.

رابطة التشكيليين

وتحدث عناني في فصول الكتاب عن فترة دراسته للفنون في مصر، ومن ثم "رحلة العودة إلى فلسطين"، وكذلك عن "رابطة التشكيليين الفلسطينيين"، حيث أشار إلى أنه وبعد إقامته معرضه الشخصي الأول في فلسطين العام 1972، في جمعية الشابات المسيحية في القدس، "وكان من النشاطات الفنية النادرة في ذلك الوقت لقلة عدد الفنانين والمعارض والأنشطة الثقافية الأخرى"، التقى بسليمان منصور، ورحاب النمري، وكريم دباح، وإبراهيم سابا. "ومن هنا انطلقت الشرارة الأولى نحو العمل الفني الجماعي"، كاشفاً "في سنة 1975 عقد أول اجتماع تأسيسي لجسم يضمّ التشكيليين الفلسطينيين في الأرض المحتلة، حضره سليمان منصور وكريم دباح وفيرا تماري وعصام بدر ورحاب النمري ونبيل عناني وإبراهيم سابا وكامل المغني وهايك لبدجيان. واتخذ المجتمعون قراراً بتأسيس اتحاد فنانين كجمعية فلسطينية أهلية غير ربحية، وتم تقديم طلب كما جرت العادة إلى وزارة التربية والتعليم التي كانت تتولى مهمة الثقافة أيضاً تحت الحكم العسكري الإسرائيلي، لكن الحكم العسكري رفض تسجيل الجمعية رسمياً، وعلى الرغم من هذا، قررنا العمل سوياً من خلال اسم جديد هو "رابطة التشكيليين الفلسطينيين"، بسبب وجود اتحاد للفنانين التشكيليين الفلسطينيين خارج فلسطين، واعتبرنا الرابطة فرعاً من الاتحاد العام في بيروت الذي ترأسه الفنان إسماعيل شموط. أجرينا أول انتخابات للرابطة في غزة بقاعة جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني برعاية الدكتور حيدر عبد الشافي، واخترنا عصام بدر رئيساً للرابطة".

جماعة التجريب والإبداع

ولا يمكن لعناني بطبيعة الحال أن يغفل في كتابه، الحديث عن دور التشكيليين الفلسطينيين في انتفاضة الحجارة العام 1987، حيث رصد "عقدنا اجتماعاً حضره عدد منا، من ذوي الرؤى والأفكار المتشابهة، وكنت حاضراً إلى جانب كل من سليمان منصور وفيرا تماري وتيسير بركات. وبناء على البيانات التي صدرت من قيادة الانتفاضة، وإحساساً منّا بأنه يجب أن يكون للفنان التشكيلي دور طليعي متمايز في هذه المرحلة، قررنا: إعلان تأسيس جماعة التجريب والإبداع كجزء من رابطة الفنانين التشكيليين، بحيث لا تنفي وجود الرابطة، واستغلال

خامة البيئة المحلية قدر الإمكان والاستغناء عن الخامات التقليدية المستوردة وخصوصاً الإسرائيلية منها، والابتعاد عن القوانين المتبعة في الفن الكلاسيكي أو الفنون التقليدية وضمنها الإطار واللون واستخدام الفرشاة والأبعاد والظل والنور والنسب وكل ما هو تقليدي، واحتفاظ كل منا بأسلوبه الخاص الذي يميّزه عن غيره ضمن الجماعة، ووضع خطة لإقامة المعارض والنشاطات والاهتمام بالإعلام والمطلوب، والاهتمام بالتعبير عن تطلعات الشعب الفلسطيني المستقبلية من خلال الانتفاضة .. ومنذ ذلك الحين أنتجنا أعمالاً مغايرة لكل ما أنتجناه من قبل، ونظمنا معارض في القدس ورام الله وعمّان وساليرنو وبروكسل وبون ومدريد .. عملت شخصياً على خامة الجلد المحلية، من جلود الخراف والماعز وأحياناً العجول".

وعرّج عناني على تجارب بعينها كـ "غاليري 79"، ومركز الواسطي للفنون في القدس، وجمعية إنعاش الأسرة، فيما أفرد فصلاً للحديث عن تجربة الأكاديمية الدولية للفنون المعاصرة، ليختم بفصل "بين العام والخاص" تحدث فيه عن جائزة فلسطين، ومعرض أوسلو، ودراسة الماجستير، ومعرض قرية الفنون والحرف في غزة، ومعرض ناس وكراسي، وبينالي الإسكندرية، ومعرض طوكيو، وجائزة الملك عبد الله الثاني للإبداع، ومعرض لندن، والتماثيل والجداريات في فلسطين، قبل أن يعود ليجمل محطات في مسيرته الفنية، وتأملات من ماضيه طفلاً في البيت والمدرسة، ومعلماً في كلية مجتمع المرأة (الطيرة)، وعاملاً في مركز الأبحاث التابع لجامعة بيرزيت .. ليختم "بعد هذه المسيرة الطويلة، ما زالت بعض القضايا تشغلني، فلم يعد همّ الفنان من همّ الوطن، وإنما أصبح الفن بالنسبة إلى الكثيرين مجرد مجال عمل لكسب القوت اليومي. ولم يعد الفن الفلسطيني، بصورة عامة، يتناول موضوعات تهم الناس في الوقت الراهن، وأنا أتكلم هنا عن فن الرسم تحديداً ... لكن من المهم أن ننظر أيضاً إلى نصف الكأس الممتلئ، فقد بدأنا بخمسة عشر فنّاناً في السبعينيات وأصبحنا اليوم نُعدّ بالمئات في الوطن والمهجر".